من مئذنة القصبة

لأمير الأمراء السيد حسن حسني عبد الوهاب

وزير الفلم بتونس

من كوة هذه المئذنة الحفصية العتيقة — مئذنة جامع القصبة القائم في قلب مدينة تونس — يرسل المتأمل بصره فتتجلى له « الخضراء » كأنها برنس أبيض مفروش على شاطىء .

وأول ما يشخص أمام بصره هذه المآذن السامقة الضاربة في الجو التي تزين أفق تونس ، وتقوم أدلة شاهدة على هذه العهود التي مضت ، عهود الأغالبة والفواطم والحفصيين والأتراك الذين كانوا يفتنون افتناناً في إقامة هذه المآذن الرائعة يدعو عليها الداعي إلى عبادة الله ، في مختلف مواقيت الصلاة .

ويالله ما أجمل هذه القباب البيض الناصعة البياض ، والخضراء الشديدة الخضرة ، والصفراء الفاقعة الصفرة ! كم تبعث في النفوس البهجة والغبطة ! وكم توحي إلى النفس معاني من الجلال والتقديس ! وكم تمتّع العين بمجال من الجمال الرائق ، هذا الجمال الذي يزيده شعاع الشمس روعة وفتنة .

إن هذه المآذن والقباب لرائعة في إشراق الشمس وبزوغ القمر . إنها لسحر في الليل والنهار . إنها آية من الفن تمتع الناظر بمختلف المعارض والمناظر .

من كوة هذه المئذنة يشرف المطالع على تونس اشرافاً محيطاً فلا ينفلت من العين معلم من معالمها ، ولا يندّ عنها مظهر من مظاهرها .

يرى تونس العربية في شكلها الشرقي البديع ، وينعم النظر فتبدو له المدينة الأوربية الحديثة بمبانيها الشاهقة وقصورها العالية .

ها هي ذي سطوح الدور العربية بيضاء مشرقة . وها هي ذي سقوف الأسواق المقوسة تبدو كأنها مسابل من ماء منسابة . وها هي ذي القصبة تظهر عامرة بهذه الدواوين الحكومية التي أقيمت على أشكال بعضها شرقي والآخر غربي . وها هي ذي بحيرة تونس تلوح من بعيد وقد انعكست عليها أشعة الشمس وأرست فيها البواخر ، وطار في جوها هذا الطائر الرائع النُّحام « البشروش » ذو الأجنحة الوردية والطيران النشوان . وها هو ذا خليج تونس يشق الأرض شقاً والرتل الكهربي يبدو كأنه أرقم جدّ في هربه ، ينساب في هذا البرزخ الممدود بين العاصمة والمصطاف التونسي البديع « حلق الوادي » الفضي الأسحار ، الذهبي الأصائل .

وها هو ذا جبل (الزلاّج) المترامي الأطراف تتوج هامته تلك القبة الخضراء القائمة في ذروته كأنها قلعة حربية ، وما هي في الحقيقة إلا زاوية الشيخ أبي الحسن الشاذلي دفين عيذاب من صحراء مصر .

ومنه تنتقل العين إلى ذلك الجبل الأشم الشامخ المرهوب جبل (أبي قرنين) المطل على مربع (حمّام الأنف) وعلى قمة هذا الجبل كان القرطاجنيون أقاموا معبداً لبعل ذي القرنين كبير آلهة الفينيقيين وما يزال التونسيون إلى اليوم يسمونه بجبل أبي القرنين .

وما تزال العين تقع من هذا الموقع الكاشف على بدائع الخضراء حتى يبدو لها من بعيد ذلك الجبل الآخر السامق النراء « جبل زغوان » مسبح الصلحاء وخلوة العباد والزهاد ، ومنبع العين الدفاقة التي تفيض بخيرات مائها النمير على العاصمة التونسية وضواحيها .

تعبير عصفورة أو تعبير زهرة تستفيد ولا شك أضعاف تلك الفائدة من تعبير أبي الطيب وهوميروس وابن الرومي وبيرون وعمر الخيام ، لأن قصائد هؤلاء تعبير عن الطبيعة الحية وليس قصاراها أنها لفظ يقال أو أنها فن يصاغ .

فالاطلاع على ثمرات القرائح اطلاع على ثمرات الحياة ، وكلما اتسع النطاق اتسع التعبير وتنوعت الثمرات ، لأنك لا تعرف الحياة الإنسانية بالإطلاع على أبناء زمانك الذين يشبهونك ويتلقون معك الشعور من مصدر واحد ، ولكنك تعرف الحياة الإنسانية حق عرفانها إذا عرفت الصلة التي بين العصور المختلفة والأقطار المتباعدة ، وعرفت الواشجة التي تجمع بينها على تعدد المصادر وتفاوت المؤثرات .

وليس هذا بميسور لشعراء العصر الواحد ، وكيفما كان نصيب هؤلاء فهو ولا جدال دون النصيب الذي يظفر به قراء جميع العصور .

١٩ ٥ ٢٤ عباس محمود العقاد

حقاً ، إن تونس من هذا المكان تخلب اللب وتأسر الفؤاد . وإنك لتود ألا تبارح هذه المناظر الصباح والمباهج اللطاف ، وهذا المزاج من الجلال والجمال والماضي والحاضر ، والذوق الشرقي والغربي الذي عمل في تكوين تونس ، في هندامها الأنيق ، وتخطيطها الدقيق ، وحسن موقعها ، وإحاطة الجبال والهضاب بها إحاطة الهلال ؛ اللهم إلا ما يصل بين البر والبحر .

إن موقع تونس الجغرافي لبديع غاية الإبداع ، هي بحرية كأنها جزيرة ، وهي برية كأنها صحراء . فهي تجمع بين العصب والنون كما يقول الحاظ في مدينة البصرة .

أما ترى البحر كيف يهاجم بأمواجه هذا المرفأ ، فهي تصطفق وتموج وتصخب ، حتى إذا ما اصطدمت بهذه الحواجز القائمة على الساحل انثنت مبددة متناثرة ، وما هي إلا لمحة حتى تتجمع موجة أخرى هاجة تريد أن تشق صدرها من صدمة هذه الحواجز ، ولكنها تنهزم مع صاحبتها الأخرى ، فلا الموج يكف عن الهجوم ولا الساحل يلقي سلاح المقاومة ...

أما ترى هذه الهضاب المحدقة بتونس ، كأنها حيوش جرارة نصبت لحراسة الخضراء ، أعلامها أشجارها ، وعدتها صخورها ، وهيبتها شموخها ، وخيلاؤها ارتفاع رأسها في الجو .

بحر إن شئت حدثك عن الأساطيل القرطاجنية ، والأغلبية والفاطمية ، وكيف شقت صفحته هذه الأساطيل الغازية لتونس ، الحارسة لسواحل البحر الأبيض المتوسط ؛ فكأنها اسود البحر ، لكنها تدفع الشر وتجلب الخير .

وجبال إن شئت نبأتك عن مدينة قرطاجنة وعن حضارة الأغالبة والفواطم والحفصيين والأتراك ، وحدثتك أحاديث القرون الغابرة ، والأجيال العابرة ، التي مرت بهذا القطر على سواحل البحر الأبيض المتوسط وضفاف أودية الصحارى الأفريقية ، جبال تصور لك الشمس وهي مائلة إلى الغروب ، مرسلة شعاعها العسجدي العليل على مآذن تونس ، والمؤذن ينتظر ليدعو الناس إلى الشكر والحمد . وتريك ضوء الفجر ينشر في الآفاق رواءه والمؤذن أيضاً يجهر بدعائه : الصلاة خير من النوم !

حسن حسني عبد الوهاب الصمارحي

محمود تيمور

رائد القصة العربية

تأليف نزيه الحكيم

دراسة تحليلية للاتجاهات الأدبية الحديثة

في آثار القاص المصري

محمود تيمور

يطلب من مكتبة النهضة المصرية شارع عدلي بالقاهرة ، وكذلك من مكتبة مصر ٦٣ شارع الفجالة بالقاهرة

وثمن النسخة عشرة قروش